رائحة الموت

داليا رأفت

obeikan.com

رائحة الموت

سارت بجانبه حاملة ملفات تحتوي تحاليل وإشاعات كثيرة لا تعرف ما بداخلها ولا هو يعرف، تمسك بذراعه مُتشبثة به كأنه صغيرها الذي تخاف أن يفلت من بين يديها فيتعرض لخطر، لكنها لم تخف من أن يجري رُغمًا عنها، هي تُحكم قبضتها عليه خوفًا من أن يقع من فرط تعبه.

ظلت علي حالتها تُمسك ملفاته تحت زراعها وكلتا يديها مُطبقتان علي زراعه خشية سقوطه حتي وصلا غرفة الممرضات التي وصفها لهما أحدهم وهما في رحلة بحث مُضنيه داخل أروقة المشفي ودهاليزها يخرجان من ممر ليجدا طريقًا يسلكاه ظنًا منهما أنه الطريق السليم فيُسلمهما الطريق لنفس الممر الذي خرجا منه لتوهما؛ حمدت ربها لوصولهما لمبتغاهما أخيرًا فقد نال منها التعب وكادت تفقد سيطرتها علي الأمانتين بين يديها.

خرجت الممرضه المسئوله معهما، تناولت الأوراق، أخذت تتفحصها مُتقمصه شخصية طبيبة في التدقيق بقراءة الأوراق وهز الرأس والتمتمة بكلمات غير مسموعة عن قصد منها حتي تسمع سؤالًا من المريض أو من معه، فتستعرض خبراتها النادرة وعلمها الغزير خاصة إن كان المريض وذويه من هذا النوع البسيط قليل الإدراك وهو النوع المفضل لأنها بسهوله تقنعه أن بيدها كل شيء وأفضل من أكبر طبيب بالمشفي فتضمن ولاء المريض لها ومن يرافقه فتتلقي منهم التبجيل والاحترام المُبالغ فيه والذي تفتقده إذا كان مريضها علي قدر من التعليم والفهم.

انتظرت حتي يُقدم لها أحدهما سؤالًا يستوضح عن أي تفاصيل، لكنها وجدت كلًا منهما شاردًا ببصره عن الآخر كأن كلاهما يُفكر في شيء بعيد كل البعد عما يفكر به الآخر، استفزها عدم إنشغالهما بها فقد ضيعا عليها دور الطبيب المتخصص حين يشرح حالة مريضه باستفاضة؛ تغيرت ملامحها، عقدت حاجبيها عبست جرتهم ورائها بنهرهما أن يُسرعا ومشت أمامهما في خطوات واسعة مُصدرة أصوات مدوية بحذائها، حتي وصلت بهما لحجرة بالدور الأرضي واسعة تصطف فيها الأسرة متوازية بين كل سرير وأخر مسافة ضئيلة تتسع فقط لخزانة من رف واحد، الآسرة كلها مسكونة إلا واحدًا ملتصقًا بالحائط.

رأت الموت يتجول بين أنحاء الغرفه، ينشر رائحته التي ملأتها أرادت سؤال ذات الوجه العابث عن عنوان الحجرة (قسم الأورام) وكل ما تعرفه إن زوجها يُعاني من فيروس إفترس كبده لكنها لم تتجرأ علي مراجعتها والإستفسار منها، أسلمت زوجها لسريره وأخذت ترص بعض الأغراض الضئيلة بالخزانة، تركتها الممرضة دون أن تفهم شيئًا مُتجهة لبعض المرضي هنا وهناك بتلك الحجرة مترامية الأطراف والمرضي يبادلونها بعض الكلمات.

تكومت في طرف الحجرة المواجه للباب مُلقيه نظرها عند شعاع شمس هزيل تسرب من موضع كُسِر في نافذة بالطرقة الطويلة التي تنتمي حجرة زوجها لها، تستدعي ذاكرتها مواقف مبعثرة من احتفال خطبة هي عروسه وهذا الرجل المُلقى على فراشه عريسه، لم تكن تعرفه ساعتها أو رأته رغم أنه من سكان قريتها وتعرف عائلته وبعض أفرادها لكن هو تحديدًا لا تتذكره، قيل لها أنه منذ أن شبَّ فتي في السادسه عشرة وهو يسافر هنا وهناك للعمل معتمدًا علي نفسه، يجمع المال وافقت علي الفور.

الجميع في قريتها يتزوجون بهذه الطريقة، صديقاتها اللاتي تزوجن قبلها واللاتي ستتزوجن بعدها، وافقت أمها وباقي أخوتها فهي الإبنة الوحيدة المتبقية بلا زواج هي مازالت صغيرة لكن تعيش في بيت كبير المساحة ضيق لكثرة عدد من يسكنه ثلاثة إخوة متزوجون لديهم أولاد وبنات يُمارسون ملكيتهم للبيت وتعامل علي أن وجودها مؤقت لم يضج أحد إخوتها بمئونتها، لكن طالما تقدم عريس فلتُخفف حملها عما يحملون.

لم تره طوال فترة الخطبة سوي مرات معدودة لظروف سفره، وفي تلك المرات كان يُجالس إخوتها ولا تنفرد الجلسة بهما إلا دقائق معدودة، كانت تستدعي ملامحه كُلما نسيتها من صورهما في إحتفال الخطبة، وحتي بعد الزواج لم يتغير الحال.. عُطلاته محدودة يقضي مُعظمها مع أهله وأصدقائه، وهي ما يتبقي من وقت يعود لعمله وترتحل بين بيت أهلها وبيتها الذي هو حجرتين داخل منزل أسرته، حتي عاد يومًا مُثقلًا بمرضه الذي سلبه مُعظم مُدخراته وأصبح قيد الإقامه الجبرية بالمنزل، ساعتها توجهت أنظار الجميع لها ينصحونها عدم التخلي عنه والتمسك به حتي النهاية، مُرسلين لها كلمات من قبيل (لك الجنه، عليك الإلتزام التام بخدمته والصبر والتحمل).

كلها واجبات مؤكدة النفاذ كانت تجد هذه النصائح والرسائل الصريحة تارة والضمنية تارة من أقاربه وأقاربها حتي أصدقائه الزائرون في نهاية كل زيارة يُذكرونها بذلك الواجب الذي لا يُمكن التفكير في الفكاك منه، أما بينها وبين نفسها تكاد تنطق لو كان هذا الإلتزام من واجبي وحدي فلماذا الإصرار علي تذكرتي به؟ ولماذا لم يعرض أحد هؤلاء الناصحين خدماته؟ حتي أخيه قدم بعض

الحجج وشرح الكثير من الأسباب عن العمل ورعاية الأسرة التي أصبح مسئولًا عنها وحده بعد غياب أخيه المُقعد بالمرض حتي يُبرر التخلي عن واجبه فلم يزر الطبيب معهما سوي مرة واحدة اكتفي بعدها بتوصيلهما لأقرب سيارة أو شاحنة وحسب، وفي أخر مرة عندما قرر الطبيب إحتجازه بالمستشفي تلقي الأخ الخبر بأن تمتم ببعض الأدعيه وأخرج من جيب جلبابه العميق بعض النقود وورقة كُتب عليها رقم هاتفه لتتصل به إذا واجهتها المتاعب.

أيقظتها ذات الوجه المتجهم بوخزه في كتفها: لا يصح أن تجلسي هكذا.

أين أذهب؟من أي بلد أنتم؟من بلد قريب لكن ذات مواصلات صعبة يصعب عليَّ المجيء والذهاب يوميًا، لا حول ولا قوة إلا بالله، تبدلت ملامح السيده كأنها ليست تلك العابثة الخشنة الكلمات ربما كانت لها شخصيتين تتعامل بهما في نفس الوقت بالتبادل، ما اسمك؟

فأخذت تُجيبها على تساؤلاتها وهي تمشي بجانبها هذه المرة وليس ورائها، اسمي عواطف، مُتزوجة من سنتين أو أقل قليلًا من سمير عبد اللطيف المريض الذي أسكنته للتو تلك الحجرة، كان يعمل في بلدة بعيدة عنا لذلك لم أكن أراه كثيرًا ويُهيئ لي أنني لا أعرفه وكنت كثيرًا ما أنسي شكله، أحيانًا أشعر أن لا علاقة تربطني به وأنني غير مُلتزمة تجاهه بالرعاية هذا الشعور يُصور لي أنني مُذنبة لكن لا أستطيع طرده ولا البوح به لأحد أعرفه، حتي أمي وأخوتي كأنهم يريدون التخلص مني، حتي لو تحملت ما يفوق قدرتي في سبيل عدم رجوعي إليهم مرة أخري وطفقوا يُقنعونني أنهم لا يتحملون أن يقول الناس تخلت عن زوجها في مرضه.

أما أهل زوجي فلم يعرض أحدهم مُشاركتي في عبء ولدهم وآثروا الإبتعاد فهذا كما رددوا واجبي أنا تِبعًا لأعرافهم وتقاليدهم، ارتسمت علامات التأثر والشفقة علي ملامح السيدة وأرادت عواطف ألا تثُقل عليها خوفًا من أن تتبدل مرة أخري فسكتت وألجأت وجهها لصدرها وشبكت يداها وودت لو استطاعت منع أنفاسها من الصعود والهبوط لعدم الإزعاج، كانتا قد وصلتا لحجرة بها مكاتب كثيرة دخلت ذات الرداء الأبيض بينما وقفت عواطف لا تدري ماذا تفعل فأشارت لها السيدة أن تدخل وتجلس خلف أحد المكاتب لم يكن بالمكتب غيرهن قالت لها استريحي هنا، تستطيعي مناداتي (سهام).

إرتاحت كل حواس عواطف أحست بقلبها يهبط مكانه بعد عناء رحلة طويلة لا تدري كيف ستنتهي حاولت الاسترخاء لكن تلك الرائحة تنبعث من كل الأرجاء تُخيفها وتُبدد الراحة التي اكتسبتها أخيرًا ظل ذهنها معلق بتلك الرائحة التي عبثت بأنفها وتظنها تغلغلت لداخلها تتسائل هل هي رائحة التعب، المعاناة، الموت الذي رأته يغلف الوجوه البائسة التي تنتظر تنفيذ حكم الإعدام أو أن يُبرئها ربها من مرضها، خلف المكتب المقابل كانت سهام تغط في نوم عميق أفاقت منه علي نظرات عواطف كأنها مندهشه من قدرتها علي النوم وسطً اكوام المرض والموت، ألم تنامين؟

لا.. أشعر بالموت يُحاصرني ورائحته في كل مكان تُخيفني لا تبرح عقلي أفكار بشأنه، فضحكت سهام: غدا تتعودين.

أثارت كلمة سهام حزن ورعب أصاب قلب عواطف تذكرت الأمانة التي تحملها، تتأكد كل دقيقة أنها تفوق قدراتها، صمتت لم ترد علي كلمات سهام واستسلمت من جديد لتفكيرها في الموت وما وراءه وتجربتها القاسية التي ستنتهي

حتما خلف أسوار تلك المشفى المخيف دون ذنبًا اقترفته، قطعت سهام وحدتها: كيف ستتصرفين، من أين ستنفقين؟؟ هل ستظلي هنا بلا مأوي أم ستعودين؟

عواطف: لا أعرف الإجابه علي أي سؤال، ما سيخبروننى به سأنفذه ليس لدي إختيار.

سهام: ما رأيك أن تعملي؟

كيف؟

ألست متعلمه؟

نعم.. شهاده متوسطه.

عظيم.

تهللت عواطف، شعرت بإنفراج ذلك الحجر الجاثم علي صدرها.. ربما يتزحزح.

سهام: ألديكي خبرة في عمل معين؟؟ أعني ما تستطيعين عمله.

عاد الحجر مرة أخري يُطبق علي أنفاسها فهي لا تُجيد أي حرفة ولم تعمل في حياتها أي عمل.. تحس بسيف الندم يذبحها لأنها أهملت تعليم نفسها ما يعينها علي نوائب الزمان.. لكنها لم تفكر في ذلك اليوم ولم يجُل بخاطرها لحظه..

سهام: ألا تجيدين أعمال المنزل من غسيل وتنظيف؟

لم تعي عواطف العلاقة التي تقصدها سهام فتركت لها مساحة للكلام دون مقاطعة.

تعرفين إذا أمور النظافة وما يتعلق بها

ها هو الحجر الملعون يتدحرج بقوه تاركًا لتنفسها الحريه التي لم تحظي بها منذ فترة..

نعم أجيد أعمال النظافه.. أنا لا اعرف غيرها.....

سهام: سأخبر الطبيب مدير المستشفي أن يوظفك عاملة نظافه نظير أجر يومي يحسب في أخر كل شهر وإذا تجولتي بعيدًا ناحية القسم الإستثماري ستحصلين علي إضافات فوق راتبك وبهذا تكوني قريبة من زوجك قادرة علي رعايته وسؤال الأطباء عنه دون حرج.

مرت أيام قليله وعواطف كالفراشه في طرقات المشفي علمت مداخلها ومخارجها.. تدل الغرباء الذين كانت مثلهم علي سؤالهم.. ينتهي يومها وبيدها بعض النقود من أطباء وطبيبات قد قامت لهم بمساعدة أو أحضرت لهم شيئًا من هنا أو هناك.. الكثيرين ممن يعملون في المشفي خاصة في القسم الذي تتواجد فيه باستمرار يعرفون حكايتها التي لا تجد غضاضة ان تحكيها بتفاصيل مختلفة كلما تذكرت شيء تُضيفه إلي قصتها.. يتعاطف البعض معها والبعض الأخر يملك حكايات أكثر بؤسًا منها فلا يعرها اهتمامًا.

أصبحت تؤمن أن مرض زوجها الذي لم تجد له أي فائدة هو سبب شعورها بالأمان عندما تكسبت قوتها بيدها.. كثيرًا وخذها ضميرها لأن آلام زوجها كانت سبب سعادتها فكانت تبالغ بالإهتمام به مُخبرة ضميرها أنه لولا عملها ما استطاعت العنايه به وتوصية الأطباء عليه..أما الرائحة التي كانت تزعجها فقد إعتادت عليها وباتت جزء منها لا تُقلقها حتي أنها إذا خرجت بعيدًا عنها واستنشقت هواءً نقيًا بدونها شعرت بالغربة وعادت مُسرعة لتحتمي بها وتشعر بالأمان.

نعمة بحمد الله

openkan.com